



Jessica M. Marglin, *Across Legal Lines, Jews and Muslims in Modern Morocco* (New Haven: Yale University Press, 2016).

يشكل كتاب جيسيكا مارجلين (Jessica Marglin) الحديث الصادر بعنوان:

Across Legal Lines: Jews and Muslims in Modern Morocco

والذي يمكن تعريبه هكذا على وجه التقريب: المقتضيات الشرعية والقانونية: في علاقة اليهود بالمسلمين في المغرب الحديث، دراسة قيمة طال انتظارها في حقل الدراسات المتعلقة ببلدان شمال إفريقيا. وتقدم جيسيكا مارجلين عبر صفحات الكتاب وجهة نظر تاريخية جديدة مقترحة في الوقت ذاته طروحات ومناقشات تاريخية جديدة في موضوع الطوائف اليهودية بشمال إفريقيا، وذلك عبر تتبعها للمسار الشرعي والقانوني لأحد التجار اليهود. وفضلا عن ذلك، تدعو الباحثة قراءها وبقية الباحثين المهتمين ببلاد المغرب بنوع من التحدي للاهتمام بإعادة النظر والتفكير من جديد في التجارب الاجتماعية لليهود ببلدان شمال إفريقيا باعتبار أنها ليست مظهرا من مظاهر "التوتر"، بل على أساس أنها تمثل، على العكس من ذلك، إحدى دلائل "التفاعل" مع المجتمع المغربي الذي عاشوا بين أحضانه بمفهومه الواسع. ويضع هذا الكتاب النقط على الحروف بوضوح للتأكيد على أن استخدام الشرع والقانون قد تجسدت من خلاله، وبطريقة ملموسة، مشاركة اليهود المغاربة في المجتمع المغربي بمفهومه الواسع خلال فترة ما قبل الاستعمار وبعدها. وتستخدم جيسيكا مارجلين تجربة السيرة الذاتية لإحدى الأسر اليهودية دون أن ينسيها ذلك الاهتمام برسم الخطوط العريضة للصورة كاملة وفي حجمها الكبير.

ومن خلال قصة حياة شلوم أصراف (Shalom Assaraf) (1830-1910)، الذي كان يتاجر في المنسوجات المستوردة، استطاعت جيسيكا مارجلين البحث بعناية في طرائق وكيفية تفاعل اليهود مع المسلمين في فاس وأراضيها الخلفية النائية عنها. لقد توفقت الباحثة بمهارة في إعادة حيك نسيج العلاقات بين اليهود والمسلمين عبر المؤسسات الشرعية والقانونية التي اعتاد شالوم أصراف التردد عليها، وهو يهودي مغربي من مدينة فاس. وتطلعنا الباحثة على الكيفية التي عاش بها اليهود تجربتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية المعقدة من خلال إبحارهم متنقلين عبر مختلف أصناف المحاكم الإسلامية منها والاستعمارية واليهودية. وقد استعرضت جيسيكا مارجلين حيثيات هذا الواقع المعقد من خلال دراستها لحالات متعلقة بدعاوي اليهود في ما بينهم والمعرضة منها على المحاكم غير اليهودية.

وتؤكد الدراسة أن التجربة الشرعية والقانونية لليهود المغاربة تبين أنهم استخدموا المحاكم المختلفة الإسلامية منها والأوروبية واليهودية كـ "بوابة" لفتح أبواب الطوائف الخاصة بهم أمام جيرانهم المسلمين. وعلى الرغم من أن أحداث الكتاب تجري في سياقات القرنين التاسع عشر والعشرين، فإن لانعكاساتها وتأثيراتها امتدادات تتصل اتصالاً تربوياً له ارتباط وثيق بالمحاولة الحديثة الرامية إلى إعادة تقييم الصدمات الإيديولوجية والعرقية التي لا تزال تساهم في توسيع الفجوة بين اليهود والمسلمين في وقتنا الراهن.

وتستخدم جيسيكا مارجلين قصة شالوم أصراف وأسرته إلى حد ما باعتبارها "سيرة ذاتية تاريخية." وأنا لا أدعي هنا أن قصة شالوم تعكس تجربة شخص "عادي" أو "فرد دون تاريخ."¹ إن مجرد تعاملنا مع مجموعة نفيسة من المعلومات المتعلقة بحياته وأعماله التجارية تجعل منه "كائناً غير عادي." ومع ذلك، يبدو أن جيسيكا مارجلين باتباعها خطوات كل من إدموند بورك (Edmund Burke) وديفيد طاغوبيان (David Taghoubian)،² قد كانت واعية على المستوى التاريخي والإستوغرافي بحقيقة مفادها أنها "بدلاً من الانطلاق من تعميمات واسعة حول"

1. Eric Wolf, *Europe and the People without History* (Berkeley: University of California Press, 1997).

2. Edmund Burke, III and David Taghoubian, "Middle Eastern Societies and Ordinary People's Lives: Rethinking Middle Eastern History," in *Struggle and Survival in the Middle East*, eds, Edmund Burke, III and David Taghoubian, 1-32 (Berkeley: University of California Press, 2006).

بعض الأسئلة المتعلقة بالتفاعل بين اليهود والمسلمين في المجالات الشرعية والقانونية، فقد اختارت "إعادة القراءة" من جديد للوقائع الشرعية والقانونية من خلال تجارب عاشتها عائلة يهودية من مدينة فاس. وباعتبارها "سيرة اجتماعية" لصاحبها شالوم أصراف، فإن جيسيكا مارجلين قد أعادت النظر والتفكير في الأعمال التاريخية المتعلقة بالمجالات الشرعية والقانونية التي تفاعل في إطارها اليهود والمسلمون. لقد اهتمت بإلقاء النظر من جديد بعناية متأنية وعين فاحصة ومدققة على النظريات الاجتماعية والتعميمات التاريخية ذات الصلة بالتفاعلات الشرعية والقانونية التي كان اليهود والمسلمون أطرافا فاعلة فيها. ويعطي الاعتماد على سيرة شالوم أصراف للكتاب موضوع هذا العرض مصداقية تاريخية لا مجال للشك فيها؛ إذ استخدمت جيسيكا مارجلين تفاصيل السيرة الذاتية التي استمدتها من أرشيف الأسرة، فحالفها التوفيق في إظهار خصوصيات النظم الشرعية والقانونية وفقا لتجربة حقيقة عاشها شالوم أصراف وإخوانه في الدين من اليهود المغاربة في مرحلة ما قبل الاستعمار وإبان الفترة الاستعمارية. ويتيح استخدام جيسيكا مارجلين البليغ والدقيق بكل درجات الاختلاف لسيرة أصراف الاجتماعية إمكانية توفير منظور تاريخي جديد يمكننا من خلاله فتح آفاق جديدة لإعادة النظر في العلاقات الشرعية والقانونية بين اليهود والمسلمين.

تنتمي جيسيكا مارجلين إلى جيل جديد من المؤرخين المهتمين بمنطقة شمال إفريقيا بوجه عام وبموضوع يهود شمال إفريقيا بصفة خاصة، وقد ظلت وفية للتقاليد التاريخية ذات الصلة بهذا الحقل الدراسي دون الوقوع بالكامل أسيرة في شبابه النظرية. وتقدم محتويات هذا الكتاب الدليل الواضح على ما تحلت به الباحثة من نفس طويل وقدرة عميقة على التحكم في ناصية المصادر الثانوية وفي جل ما كتب حول الوضع الشرعي والقانوني لليهود المغرب وبلدان الشرق الأوسط. ومع ذلك، لم تتردد جيسيكا مارجلين في المغامرة باستكشاف معطيات أرشيفية جديدة، مكنتها من تسليط الأضواء الكاشفة على قضايا جديدة في موضوع العلاقات بين اليهود والمسلمين. إن الحرص الذي أبدته الباحثة على اقتفاء آثار الوثائق والمستندات من الأرشيف الشخصي لصاحبه شالوم أصراف وملاحقتها بإصرار لا يخلو من متعة في كل من باريس، ونيويورك، ونيو هافن، وبروكسيل والقدس، ليس من شأنه

أن يؤكد لنا مدى أهمية المحفوظات الوثائقية العائلية في التمكين من إعادة كتابة التاريخ اليهودي في بلدان شمال إفريقيا فحسب، بل إنه ليؤكد أيضا مدى أهمية اتخاذ المبادرة للتفكير مليا خارج الحيز المألوف للمواد الأرشيفية التقليدية بغية التوصل إلى فهم أوسع وأعمق للقضايا الكبرى ذات الصلة بموضوع العلاقات بين اليهود والمسلمين. إن سعي الباحثة الحثيث وراء مطاردة المستندات الوثائقية عبر هذه القارات، وقدرتها على التحكم في ناصية كثير من اللغات واللهجات، بما في ذلك العربية الفصحى، والعربية الدارجة المغربية، والعبرية العربية والفرنسية والعبرية، قد مكنتها من التسلح بالمهارات اللازمة لاقتحام مختلف أشكال الصمت، وملازمة شتى الفروق الدقيقة في المعاني، وفك التعقيدات الدفينة المستعصية على القارئ غير المتبصر والتي ترخر بها وثائق شالوم العائلية هنا وهناك.

إننا أمام كتاب يستند في جوهره على ما يقرب من ألفي قطعة من المستندات الوثائقية المخطوطة في المواضيع الشرعية والقانونية التي تمكن من كشف النقاب بوضوح عما يعترى عددا كبيرا من الدراسات التاريخية المتعلقة بيهود شمال إفريقيا من الغموض والقصور، لأنها قد تجاهلت تلك المعطيات الوثائقية الغنية والمختلفة، أو فشلت ببساطة في شرحها بما يقتضيه الأمر من التفصيل والتدقيق. ويمثل كتاب جيسিকা مارجلين محاولة ناجحة "تجعلنا نعيد التفكير"، في ما وصفته بـ "طبيعة العلاقات بين الأديان ومكانة الشرع والقانون ودورهما في تجاوز الهياكل الهرمية للاختلاف وتعزيزها" (20). لقد بينت الباحثة كيف سعى شالوم أصراف إلى الاستفادة من الخدمة الشرعية للعدول الموثقين المسلمين لمنح القروض إلى كتّاب العدل المسلمين. وعلى غرار ما أوضحته تماما في كتابي: يهود المغرب وحديث الذاكرة، عندما تناولت بالدراسة كيفية اعتماد يهود المناطق القروية النائية على القضاة المسلمين المحليين للحصول على عقود موثقة، فإن جيسিকা مارجلين لجأت إلى استخدام المستندات الوثائقية لإحدى الأسر اليهودية الحضرية للتمكن من تسليط الضوء على مدى شيوع المعاملات الشرعية والقانونية عبر الحدود الدينية.

وتأخذ جيسিকা مارجلين القارئ عبر صفحات كتابها في رحلة تسوقنا إلى الاطلاع على أنظمة المحاكم المختلفة في المغرب قبل الاستعمار، وذلك من خلال التنقل عبر مختلف القضايا والنوازل القضائية التي كان أصراف طرفا

فيها بشكل من الأشكال. وفي الفصل الأول من الكتاب، قدمت وصفا مسهبا وغنيا بالمعلومات فرسمت خريطة ذات معطيات واضحة عن تعدد المؤسسات والنظم الشرعية والقانونية الجاري بها العمل في مغرب ما قبل الاستعمار. وتشير الباحثة إلى أنه على الرغم من النقص الظاهر الموجود في العلاقة بين أنظمة المحاكم بأصنافها الإسلامية واليهودية والاستعمارية والعرفية أيضا، فإن النوازل والحالات القضائية الواردة في الدراسة تبين باللموس أنها كانت متصلة إلى حد كبير بحكم الطريقة التي اعتمدها اليهود للتردد عبر أنواعها المختلفة. وقد أفردت جيسيكا مارجلين فصلا تلو الآخر لمناقشة كل نظام من أنظمة المحاكم المذكورة على حدة، وأثبتت فيها بوضوح، ومن خلال الحالات المعروضة، كيف اعتمد أصراف على خدمات المحاكم الشرعية لتسوية المشاكل المترتبة عن الصفقات التجارية والشراكات المعقودة مع المسلمين (الفصل 2).

ثم انتقلت بعدئذ للاهتمام بتسليط الضوء على الروابط المعقدة الموجودة بين المحاكم الإسلامية ومثيلتها اليهودية. وفي الفصل الثالث، حاولت الباحثة مناقشة الأسباب الكامنة وراء اختيار اليهود والمسلمين، على حد سواء، رفع دعاوهم القانونية أمام القضاة المسلمين أو المحاكم اليهودية بدلا من الالتزام بالبقاء داخل حدود النظم الإسلامية أو اليهودية لكل منهما. إن التجار اليهود والمتقاضين المسلمين، بعبورهم لمقتضيات هذه الحدود الشرعية والقانونية، قد تمكنوا من إجبار المؤسسات الشرعية والقانونية اليهودية والإسلامية على استيعاب احتياجاتهم والاستجابة لها. وبغض النظر عن اختصاصات السلطات المحلية والإقليمية، قد يلتمس اليهود أيضا من السلطات المخزنية المركزية مباشرة إنصافها وتمكينها من حقوقها كاملة. وتستند العلاقة القائمة بين السلطان ورعاياه اليهود على روابط الحماية التي تسمح لهم بالتماس التحكيم من شخص السلطان مباشرة في حالة وقوع الشطط وعدم الإنصاف الشرعي والقانوني أو الديني في حقهم.

وكانت فترة الاستعمار إيذانا ببداية وقوع بعض التحول، ليس على مستوى العلاقات بين اليهود والمسلمين فحسب، بل إنها قد أوضحت أيضا مدى محدودية التفاعل بين الطرفين في المحاكم الدينية الخاصة بكل منهما. وبالتالي فإن الشروع في إدخال النظم القانونية الأوروبية وانتشار الحماية القنصلية الأجنبية قد مهد

لبداية مراحل الانفصال الأولى بين اليهود والمسلمين. وبدراستها لأربع حالات قانونية قدمت لنا جيسيكا مارجلين وصفا سرديا وتحليليا واضحا حول كيفية تحول اليهود المحليين نحو الحماية الدبلوماسية الأجنبية، فضلا عن ظروف وملابسات استفادتهم من دعم المنظمات اليهودية الدولية. وأدى ارتفاع عدد اليهود المغاربة الحاملين لجنسيات دول أجنبية بالمحاكم القنصلية أيضا إلى بداية اضطلاعها بمسؤوليات قضائية أخرى لا تخلو من أهمية زادت في تعقيد الوضع وإثقال صورة الخريطة القضائية في المغرب. لكنه على الرغم من هذا الارتفاع الحاصل في عدد الحماية الأجنبية، تؤكد الباحثة أن العلاقة القانونية بين اليهود المغاربة والمخزن قد بقيت على حالها. وعلى غرار الروابط القائمة بين المحاكم الإسلامية واليهودية، فإن السلوك القانوني لليهود المغاربة قد اضططر معه المسؤولون في المحاكم الإسلامية والقنصلية إلى ضرورة أخذ معايير إثبات الأدلة الخاصة بكل من الطرفين على حدة بعين الاعتبار.

وبعد أن وضعت الباحثة بنجاح الأسس التي بنيت عليها مختلف الأرضيات الشرعية والقانونية بتوجيه قراءها عبر اقتفاء آثار خطوات شالوم التاريخية الذي سعى إلى الحصول على المساعدة الشرعية لدى المحاكم الإسلامية، ثم حصل على الحماية الأمريكية والحق في الاستفادة من التدخل القانوني القنصلي لصالحه، لكن مع الالتزام أيضا باحترام قوانين الشريعة اليهودية، حولت جيسيكا مارجلين اهتمامها الأخير إلى استعراض التحولات القانونية الطارئة التي دشنها فرنسا في السنوات الأولى من وجودها الاستعماري في المغرب. ولاحظت الباحثة في هذا الصدد أن السلطات الاستعمارية اهتمت في المقام الأول، ليس بالحد من إمكانية اللجوء إلى محاكم مختلفة فحسب، بل أيضا بمحاولة الفصل بين مختلف الأنظمة القضائية جملة وتفصيلا. وبهذا يكون الإقدام على وضع الحدود القضائية بهذه الصورة المقصودة قد أسفر عن إحداث فصل مستمر بين اليهود والمسلمين على مر الزمن.

وخلصت جيسيكا مارجلين، عن اقتناع منهجي ومعرفي، بأن النجاح الذي حالف المشرفين الإداريين الاستعماريين الفرنسيين في الحد من العلاقات القائمة بين اليهود والمسلمين على صعيد الحيّز القانوني الخاص بكل منهما قد ترتب عنه تقليص من فرص اللقاءات الممكنة وأفضى بالتالي إلى تشجيع انتشار مظاهر العداء بين أفراد

الطائفتين على مدى العقود اللاحقة. وساهمت الرابطة اليهودية العالمية، بصفة غير مباشرة، في تعزيز هذه الثقافة الانفصالية الجديدة ودعمها، بحكم أنها ما فتئت أن أكسبت اليهود امتيازات ظلت بعيدة المنال عن جيرانهم المسلمين حين مكنتهم من أسباب الوصول إلى فوائد التعليم الحديث، ثم أقحمتهم بالتالي في قلب البيروقراطية الاستعمارية الفرنسية. لذلك وعلى الرغم من تمسك اليهود بمواقف إيجابية من النظام الملكي وخصوصاً تجاه السلطان محمد بن يوسف، فإن فرنسا قد ظهرت بمرور الوقت بصورة الحامي القانوني الجديد لهم على الرغم من السجل المخيب للأمال المترتب عن مواقف فرنسا زمن حكومة فيشي تجاه اليهود الفرنسيين والجزائريين.

ويمثل كتاب المقتضيات الشرعية والقانونية: في علاقة اليهود بالمسلمين في المغرب الحديث، بالدرجة الأولى دراسة عن تاريخ العلاقات بين اليهود والمسلمين في المغرب من خلال ممارسة القانون وسلوكاته. ويتعلق الأمر أيضاً ببحث موثق بطريقة جيدة ومكتوب بأسلوب شيق وجميل، مما يؤهله لاستقطاب الاهتمام من جمهور أوسع، وسيكون مفيداً لا محالة للطلاب في حقول دراسات الشرق الأوسط وبلدان شمال إفريقيا، والتاريخ بوجه عام، والدراسات الدينية اليهودية، والدراسات الإسلامية، وكذا الأثروبولوجيا التاريخية والقانونية. ويقدم هذا السرد المتعلق بحياة شالوم أصراف، وإن طغت عليه في المجمل صبغة شرعية وقانونية، فرصة فريدة للاطلاع على الحثيات المحيطة بقصة بالغة التأثير، تخبرنا بكيفية بناء الجماعات اليهودية والمسلمة ومحافظتها على علاقات قوية في مواجهة التحديات الناجمة عن جغرافيات قانونية صعبة حاولت جاهدة التفريق بينها. إنها قصة تروي تاريخاً من الأمل في زمن هيمنت عليه لحظات من العنف الطائفي، ولذلك فإنني لا أجد مناصاً من الإلحاح على ضرورة الاهتمام بالاطلاع عليها وتمكينها من فرص التداول على نطاق واسع بترجمتها إلى اللغتين العربية والفرنسية.

عمر بوم

جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس